العرب
الأحد 2020/03/15
السنة 42 العدد 11647

أعظم قصيدة عربية حديثة كتبها الشاعر حسب الشيخ جعفر

الحرب انتزعتنا من ثيابنا ودفاترنا وملهماتنا الصغيرات

فاروق يوسف

"نحن من صلب الماضي. نصفنا اختراع والنصف الآخر ذاكرة".
(بورخيس)

أفضل للمرء أن يعيش مشردا، غريبا، منبوذا وهائما على وجهه على أن يتعفن مثل طحلب على سطح بحيرة العائلة أو يزحف مثل عضاية في مسيرة الحزب أو يمحو بصمات أصابعه وهو يحصي النقود.

حين نشرت أول قصيدة كنت في سن الرابعة عشرة (حدث ذلك عام 1969)، كنت أتوقع يومها أن أموت مبكرا، غير أنني عشت إلى سن التاسعة عشرة لأكون واحدا من أربعين مبشرا بولادة قصيدة جديدة في العراق (حدث ذلك عام 1974).

حين بلغت الخامسة والعشرين أصدرت كتابي الشعري الأول "أناشيد السكون" وذلك في عام 1980. كنت بعد لم أبلغ السن الذي توقعت أنني سأموت فيه. حين قامت الحرب مع إيران لم تبق لي إلا سنة واحدة تفصل بيني وبين ذلك الخط الافتراضي للموت. يشاء القدر أن يرسلني الوطن إلى الحرب وأنا في السنة الأخيرة من عمري.

يومها كتبت كتابي الشعري "الملاك يتبعه حشد من الأمراء" ليكون وصيتي وكان صديقي صاحب الشاهر قد قُتل في الحرب بعد أن نشر كتابه الوحيد "أيها الوطن الشاعري". لم نودع الشاهر لأن الحرب أخذتنا من ثيابنا، من دفاترنا، من ملهماتنا الصغيرات، من ظلال الأشجار التي كانت تهبنا ربيعا وهميا، من الأرصفة التي كانت تودعنا بتماثيل تشبهنا، من أعمدة شارع الرشيد التي كنا نخطئ في عدها كلما حاولنا ذلك، من مقهى البرلمان الذي كنا نحسبه يطل على نهر السين. لم نكن لنغفر لأحد أنهم أخذونا إلى حرب، هي ليست حربنا. كنت على يقين يومها أن تلك الحرب لم تكن إلا ذريعة لتتحقق نبوءة الشاعر الذي كنته في سن الرابعة عشرة. ما لم أتعلمه في تلك اللحظة سيكون عليّ أن أتعلمه بعد حوالي خمسة عشر عاما.

كان السبب أنني حين وصلت سن التاسعة والعشرين من عمري وكنت قد نجوت من الموت خيل إليّ أنني نجوت نهائيا فانشغلت بمشاريع الحب، من غير أن أفكر في أن الشعر الذي وضعني على طريق نبوءة الموت كان في الوقت نفسه قد غرس في روحي أسباب الاختلاف التي ستصنع مني كائنا مستفهما، لا يرتاح إلى التسويات العامة ولا يرغب في أن يكون جزءا من كل معطل، ليس لديه ما يعترض عليه. كنت أكره لغة القطيع لذلك كتبت كتابي الشعري "لنعد يا حصاني إلى النوم".

أزهار الشرفة نائمة

لم يكن لدى ذلك الحصان ما يقوله. كانت الرغبة في النوم مثالية في التعبير عن علاقتي بالعالم الخارجي. "سأتخلى عن كل شيء" قلت لنفسي وأنا أعدها بتمارين على العزلة.

أعانني نيتشه وأنسي الحاج ورينيه شار على فهم شيء من الطور الذي كنت أمر فيه. استرجعت يومها فكرة لطالما أثثت حواسي بضرباتها المائية "أن أكون غريبا" وهو ما ظهر لاحقا في ديوان صغير أسميته "غريب مثلي" ضمه كتابي الشعري "هواء الوشاية" الذي كتبته لاحقا في الدوحة.

لقد غادرت البلد نائما من أجل أن يكون فك الارتباط جزءا من غياب سيجلب تداعياته عفويا، من غير أن يلحق الأذى بأحد. في ذلك الفجر رأيت كل شيء يسيل كما لو أنني كنت أتذكر. حيرني شعوري بالغربة عن المكان. لقد حل صمت هائل. صمت أحاط الشوارع والأرصفة والأشجار والجسور والمارة والذكريات والوجوه والبيت. كان كل شيء من حولي صامتا. حتى فمي، فإن جوفه خلا من الكلمات. حنجرتي فارغة وعيني فارغة وأنفي يمتنع عن الشم. كانت الروائح صامتة فيما كنت أنزلق إلى العدم. "هل عشت هنا فعلا كل تلك السنوات؟" سألت نفسي وأنا أعرف أنني ذاهب إلى لامكان. ولكن العراق لم يعد إلا مكانا لا يعد بالإقامة. لا مشي على حافة النهر ولا نزهات خيالية بين دروب السماء. سيكون كل مكان هو الارض الموعودة. لست نبيا وليس هناك شعب يقف في وداعي. سأحدث نفسي في ما بعد عن الثقوب السوداء التي كانت تلعب بين أوتار شبكية عيني. "أكنت تراها إذن؟" "كما أرى القلادة وهي تطوق جيدك" كنت ذاهبا إلى غيابي بأريحية بطل سومري. دمية الإله في جيبي وعلى شفتي بضع قطرات من النبيذ الأحمر. "انتبذوا" وهي وصية شعرية لم أتبعها إلا حين وصلت إلى أسوج. هناك فقط فهمت معنى أن يكون المرء نبيذيا. في الطريق إلى أسوج وقد استغرقت أربع سنوات كنت أفكر في الطريقة التي يكون فيها المرء عراقيا أقل. كنت أحلم أن أكون ذلك العراقي الأقل. العراقي الذي لا يحلم سوى بأن يكون أقل اكتراثا بعراقيته. ولكن ما معنى أن يكون المرء عراقيا؟ أفكر الآن في معجون الطماطم الذي كان جاري أبو روني واسمه جان فيليب يصنعه مخلوطا بالبطاطا. ولأنه كان يحدثني عن أختيه المقيمتين في الهند فقد تخيلت أن حقول المانغا التي تملكها الأختان قد نشرت رائحتها في بيته. كانت ابنته كلوديت التي عاشت جزءا من طفولتها في الهند قد حدثتني عن تلك الحقول.

أسرني الرجل الذي هاجر بسبب القصف الإيراني من البصرة إلى بغداد بأن أباه كان مجندا في جيش الملكة فيكتوريا الذي غزا الهند.

> لا شيء يمكنه أن يقع بمفرده. هناك علاقة خفية بين الأشياء المتنافرة يكشف عنها الشعر. الفن عموما لا يخطئ طريقه إلى الحقيقة. ولكن ما الحقيقة في الشعر؟

حين تقاعد الأب اختار أن يقيم في البصرة تاركا ابنتيه وقد تزوّجتا في الهند. جاري جان فيليب وهو البريطاني الأصل كان عراقيا أكثر مني. في أقسى الظروف التي مر بها العراق لم يفكر باستعادة جنسيته البريطانية. هو عراقي أكثر مني لأنه لم يفكر في الهروب من العراق. "لا تصدقه فهو نائم" قال لي ابنه حسام. يومها فكرت عميقا في النوم. الهند نائمة، سريري نائم وأزهار زوجتي في شرفة البيت نائمة. هل كان العلم يفيق من نومه صباح كل خميس وهو ينصت إلى صراخنا "موطني موطني"؟ بدلا منه كنت أحلم يومها في أن أكون هنديا. ربما سأكون عراقيا في مناسبات أخرى.

"سأرقص لك جوبية. وهي رقصة لا يجيدها سوى العراقيين" قلت لشرطي الجوازات في الحدود السورية ـ الأردنية وقد طالبني بإثبات هويتي العراقية بعد أن قلب أوراق جوازي الأسوجي. ولو أنه لم يضحك ووافق على عرضي لفشلت في أداء تلك الرقصة. يومها اكتشفت أن عراقيتي لم تكن سوى كذبة. الحبل الذي أعلق عليه أشباح حنيني. حين دفع جوازي إليّ قال بابتسامة تملأها المرارة "أنا من دير الزور وأفهم ما تقول" غير أن تلك الحادثة جعلتني أفكر في ما كنت أكتبه من شعر. لم يكن تفكيري في الشعر عراقيا. ذلك لأني لم أتح لنفسي فرصة أن أقع في غرام السياب.

لم أقرأ من السياب في الماضي سوى القصائد التي اختارها أدونيس. تلك القصائد كانت بحق أعظم ما كتبه السياب، غير أن قراءة شعره كله هي شيء مختلف في تأثيره. وهو ما لم أفعله إلا في وقت متأخر. من عبدالوهاب البياتي لم يعجبني سوى "قمر شيراز".

شدني حسب الشيخ جعفر في قصائده المدورة وأبرزها "القارة السابعة" وهي كما أرى أعظم قصيدة عربية كتبت في العصر الحديث. لم تُكتب تلك القصيدة إلا من أجل أن يكون الشعر خالصا. القطيعة الحقيقة التي حدثت مع الشعر العربي التقليدي وقعت مع "القارة السابعة".

يومها فقط كتب العرب قصيدتهم المعاصرة. لم تكن تجارب السياب وأدونيس وخليل حاوي ويوسف الخال إلا تمارين مسرحية مهدت لولادة تلك القصيدة التي لم تكن عراقية تماما. بهذا المعنى فإنني اكتشفت أنني لم أكن عراقيا ولم أحمل بين طيات ثيابي سوى روائح المطبخ العراقي. لقد خسرت فرصة تذوق المقام العراقي.

بعد سنوات سأحلق مع صوت يوسف عمر وهو يغني "جلجل عليّ الرمان" لأحلم بحبات الرمان وهي تنفرط بين يدي. أما كان عليّ أن أرافق جلال الحنفي في جولته بين خانات بغداد العباسية لأنصت لحكاياته التي يمتزج فيها الخيال بالواقع؟ لقد أتيحت لي فرصة أن أنام ظهرا في مكتبة الأب أنستاس ماري الكرملي في الكنيسة التي قضى حياته راعيا فيها، من غير أن أجرؤ على سحب كتاب من رفوفها. لقد عبرت نهر دجلة بالزورق ما بين الكرخ والرصافة مرات من غير أن أتأمّل أمواجه. كانت بائعة السمك في سوق الشواكة تثير شهوتي أكثر مما يفعل السمك.

ألغام اللغة في فراديسها

لم أخبر الشاعر عبدالوهاب البياتي حين صرنا صديقين في تسعينات القرن الماضي أنني حاولت ذات يوم سرقة كتابه "الذي يأتي بعد الموت" من إحدى المكتبات وفشلت.

كانت تلك المحاولة اختبارا لأعصابي ولقوة ضميري الذي انتصر عليّ في اللحظة الأخيرة. حين أعدت الكتاب إلى مكانه لم يكن صاحب المكتبة قد انتبه إلى عملية السرقة الناقصة. عبر أكثر من ثلاثين سنة من الكتابة كنت حريصا على أن أقف مترددا أمام السطر الذي يدهشني بعد كتابته. "ربما هو ليس لي. ربما هو لآخر، مكنتني لحظة الالهام من التلصص عليه" مرة أخرى أفكر بابن زريق البغدادي الذي ترك واحدته تحت المخدة ومات "لا تعذليه، فإن العذل يوجعه/قد قلت حقا ولكن ليس ينفعه"، لربما دس أحد ما تلك القصيدة تحت الوسادة التي امتزجت بأحلام ابن زريق الأخيرة. ولكن لو لم يكن خادم الخان أمينا أكان أحد قد سمع باسم الرجل القادم من بغداد إلى الأندلس ومات قبل أن يمتزج إيقاع خطواته بياسمين دروبها.

شبح ابن زريق مشى بي في دروب دمشق القديمة في محاولة منه لتعويضي ما فقدته من بغداد. من الصعب عليّ اليوم استعادة مشهد الفقر الذي كنا فيه. كنا نتصفح كتب فرانكلين التي كانت تعرض للبيع في عربات الدفع بالباب الشرقي بمئة فلس للكتاب، من غير أن نقوى على شراء كتاب واحد. كنا نتبادل الكتب لكي نشبع توقنا المعرفي. الحلم الذي كان يراودني كل ليلة يتمثل في جلوسي في غرفة تغطي الكتب جدرانها.

وحين قرأت أن الأرجنتيني بورخيس كان قد تخيل الجنة على هيأة مكتبة، قلت لنفسي "هو ذا حلمي القديم يتجسد في عبارة لامعة" حين حصلت على كتاب "الشعر والتجربة" لإرشيبالد مكليش كنت مستعدا لوقوع الزلزال الذي سيغير طريقتي في النظر إلى الشعر. كانت فكرته عن الانسجام الكوني قد لعبت دورا خطيرا في تطوير علاقتي باللغة. كل شيء مقابل كل شيء.

لا شيء يمكنه أن يقع بمفرده. هناك علاقة خفية بين الأشياء المتنافرة يكشف عنها الشعر. الفن عموما لا يخطئ طريقه إلى الحقيقة. ولكن ما الحقيقة في الشعر؟ صدّقت ما ورد في بيان يوسف الخال حين أعلن عن موت مجلة شعر من حديث غامض عن الاصطدام بجدار اللغة. كان شاعر البئر المهجورة مخلصا في وصف الحالة التي انتهى إليها الشعر يومها. ما من شيء يهزم الشاعر مثل اللغة. فاللغة هي حقيقة الشعر. تصغر كل الحقائق بين يدي الشاعر إن وقفت اللغة إلى جانبه.

غير أن ذلك الأمر لا يعني بالضرورة تمكّن الشعر من إخضاع اللغة. فاللغة لا يمكن إخضاعها أبدا. استقلالها وحريتها وتمردها وغضبها ونفورها وتعففها وزهدها وترفها وثراؤها وأناقتها وعلوّها وتساميها وشفافيتها وغموضها وعصيانها، كلها أسس تنبت على أرض غريبة. أرض يمشي الشاعر عليها كما لو أنه يجتاز حقل ألغام. "العدوّ هناك" كنت ألتقط المفردات بحذر وخفة، بسبب إحساس غامض بأن تلك المفردات ستختفي إن لم أمدّ يدي إليها وقد تنفجر بي في أيّ لحظة. في أحيان كثيرة تكون اللغة هو ذلك العدو الذي لا يجهر أحد باسمه.

خرّبت حياتي بلغة لا تنام

كانت الكتابة وطني. لذلك لم أسع إلا متأخرا ومضطرا إلى البحث عن وطن بديل للعراق الذي حين ألتفت إليه الآن لا أرى فيه سببا واحدا للسعادة. كم كنت أبله وأنا أوزع السعادات على الأصدقاء كما لو أنها بطاقات يانصيب. وبالرغم من أن الحظ لم يسعف أحدا منهم فإن الضجر لم يتمكن مني.

الغريب أني لا أتذكر لحظة واحدة من عمري، شعرت فيها بالضجر. لا لأنني كنت أملك دائما ما أفعله وهو ما كان يجعل الوقت يمر مسرعا وحسب، بل وأيضا لأن الكتابة وقد أصبحت ملهمة لحياة لم تتح لي الفرصة للنظر من خلال النافذة إلى ما يقع في الخارج. أتذكر قصيدة لهنري ميشو عن رجل وامرأة يعيشان في غرفة مسدلة الستائر. حين تموت المرأة يرفع الرجل الستارة ويفتح النافذة ليكتشف أن العالم قد تغير. ربما استلهم ميشو قصيدته من حكاية أهل الكهف بطريقة معاصرة، غير أن تلك القصيدة تقع في منطقة تعبيرية مكتظة بالدلالات.

يتغير العالم بعد الموت. يتغير بعد الفقدان. يتغير بعد الغياب. ليس العالم إلا مرآة. لا يشكل الوقت إلا عنصرا واحدا من العناصر العديدة التي يتألف منها زئبقها. في عمق تلك المرآة، حيث أقيم كنت أضع اللغة على ركبة فيما أضع العائلة على الركبة الأخرى. وإذا ما كانت اللغة قد أحاطت ركبتها بالفراشات فإن العائلة قد أثقلت ركبتها بكل ما يعيق ويكدّر ويحبط.

لوحة للفنان ناصر حسين

لقد نظفت اللغة حقول روحي من الشياطين وملأتها ملائكة. حين اكتشفت أنسي الحاج في وقت مبكر من حياتي شغفت بالفاصلة التي تقع بين جملتين. وأيقنت أن ليس علينا أن نقول جملا لتنتهي بنقطة. النقطة هي النهاية التي لا يرغب الشعر في الوصول إليها. كان الصينيون يُعرّفون الرسام الجيد بأنه الرجل الذي يعرف متى يرفع فرشاته عن الورقة.

> أفضل للمرء أن يعيش مشردا، غريبا، منبوذا وهائما على وجهه على أن يتعفن مثل طحلب على سطح بحيرة العائلة أو يزحف مثل عضاية في مسيرة الحزب أو يمحو بصمات أصابعه وهو يحصي النقود

في واحدة من لقاءاتي بأنسي وقد صرنا أصدقاء في ما بعد حدثته عن تلك الفاصلة. ضحك عميقا وقال "لقد خرّبتُ حياتك إذن" شكرته لأنه فعل ذلك. بعد وقت طويل فاجأني صديق سوري هو كريم العفنان حين أطلق على لغتي تسمية "لغة الماء".

لم أعترف له أنني عبر كل التجارب المختبرية التي خضتها كنت أسعى إلى الوصول إلى اللغة السائلة. وهي لغة لا تقع مثل حجر ولا تهبّ مثل ريح ولا تنفجر مثل لهب، بل تمرّ بخفة الماء وانسيابه.

لغة يمكنها أن تزرقّ بين الثديين وتحمرّ على الخدين وتصفرّ بين الفخذين وتبيضّ على أطراف الأصابع. أما كان يسعدني أن تلك اللغة قد ساعدتني على الكتابة بيسر؟ غير مرة حاولت أن أكتب نصا بعشرة آلاف كلمة بنفس واحد ونجحت.

ألا يعني ذلك كرما لغويا لا مثيل له؟ في "رأت مسافرا" وهو كتابي الشعري الذي صدر عن "الغاوون" بعد كتابي "هواء الوشاية" الذي صدر عن "دار النهضة" جرّبت لغة الكلام اليومي.

الموضوعات المنشورة في الصفحات 10-13 بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية

> لم أخبر الشاعر عبدالوهاب البياتي حين صرنا صديقين في تسعينات القرن الماضي أنني حاولت ذات يوم سرقة كتابه «الذي يأتي بعد الموت» من إحدى المكتبات وفشلت